ازدهار الفصحى في القرن العشرين

للأستاذ الدكتور شوقي ضيف رئيس المجمع

الزملاء المجمعيون ، سيداتي وسادتي :

الفصحى لغة عريقة تتعمق في التاريخ إذ نشأت مند نحو ستة عشر قرنًا ، وهي -بذلك- أقدم اللغات الحية زمنًا وأطولها حياة ، تولدت من لهجة قريش وارتفعت إلى منـــزلة لغة أدبية لعرب الجزيرة العربية في الجاهلية ، وإنما اختارت قبائل الجزيرة لهجة مكة القرشية لتكون لغة أدبية عامةً لها لأن مكة كانت مهوى أفئدتهم بسبب مركـــزها الديـــني الروحي والاقتصادي المـــادي فكانـــت حارســـة الكعبة بيت عبادتهم ، وكانت قوافلها التجارية تجوب الجزيـــرة شمـــالاً وجنوبًا وشرقًا ، وكان العرب يجتمعون بها في أعيادهم الدينية وفي الأسواق المحيطة بمكة ، وبخاصة في عُكاظ ينشـــدون فيها أشعارهم ، ويحتكمون إلى الـــنقاد لإعـــلان أسماء المتفوقين فيهم . وكانت القبائل العربية ترى الحبشة تسيطر على اليمن ثم الفرس ، ويسيطر الروم على القبائل في الشـــمال الغربي للجـــزيرة ، والفـــرس على القبائل في الحيرة والشمال الشـــرقي ، فتجمعت قلوبهم حول مكة الـــتي لم تدِن يومًا لسلطان أجنبي فكانت رمز استقلالهم وعاصمة ديانتهم الوثنية ، وكان طبيعيًا أن يشعروا بسمو لهجتها ، وأن يتخدوها لغتهم الأدبية التي يصوغون فـــيها أدعيتهم الدينية وأشعارهم . ونوَّه أســـلافنا بجمال اللهجة القرشية الفصحى وتفوقهـــا على اللهجات العربية من مثل قـــول أحمد بن فارس :"إن قريشًا أفصح العـــرب ألسنة وأصفاهم لغة " ويقول أبو نصـــر الفـــارابي : "كانت قريش أجود العـــرب انـــتقاء للأفصـــح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعًا وأبينها إبانة عما في النفس ".

وحظيـــت هـــذه الفصحى القرشية بنـــزول القرآن الكريم فيها وما صبّ بها من إشاعات بلاغية وربانية بحيث لم يتح لأمـــة مـــن الأمم كتاب يماثله في روعة البـــيان، وظن الأسلاف أن هذه الروعة

(*)ألقيت هذه المحاضرة في الجلسة الثانية يوم ١٠ من ذي القعدة سنة ١٤١٨هـ الموافق ٩ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٨م .

وحدهـــا مـــدار إعجازه وحدها ووقفوا عندها يصورونها في مباحث قيمة ، وفاتهم من وجوه إعجازه أنه ينقل من يتلوه ومن سمعـــه إلى حضـــور رباني يملك عليه لبه وقلـــبه، ويستولي على كيانه ، فيستسلم للرســـول ويعلن إليه إسلامه على نحو ما كـــان يحدث للمسلمين القرشيين الأولين وما حدث لعمر بن الخطاب ، فقد كان كافـــرًا وملأه خاله أبو جهل أكبر أعداء الرسول حَنقًا عليه وغضبًا لتفريقه الجماعة في مكة، وأقسم لخاله ليقتلنه وتقلد سيفه، وسار في شوارع مكة وفيها علم أن أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد أسلما ولم يكـــن يعلم، وسمعهما يتلوان القرآن قبل دخوـــله البيت فدخل غاضبًا في عنف ، وضرب أخته فقالت له: قد أسلمنا فاصنع ما بدالك . يقول عمر: - كما في عيون الأثر - فرأيت كتابًا في ناحية من البيت، فقلـــت لأختي أعطنيه ، ولم أزل بها حتى أعطـــته لي ، فـــإذا فيه سورة الحديد ، وقرأت في أولها (بسم الله الرحمن الرحيم) فذُعـــرت ورميت الصحيفة من يدي ثم رجعـــتْ إليَّ نفسي فإذا فيها : (سبح لله مـــا في الســـموات والأرض وهو العزيز الحكيم) فكلما مررت باسم من أسماء الله ذُعـــرت ثم ترجع إلي نفسي حتى بلغت الآيـــة : (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وبلغتُ إلى قوله : (إن كنـــتم مؤمنين) فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله . ووضع عمـــر سيفه في غِمده وذهب مهرولا إلى رسول الله وأعلن إليه إسلامه . وفي هذا الخبر ما يصور بدقة ما أقوله من أن القرآن الكريم يمسك بزمام تاليه وسامعه ، بحيث يستسلم لله ورسوله، وهو إعجاز عبر عنه عمـــر بقوله إنه كان يذعر كلما تلا اسمًا من أسماء الله .

وسمع الوليد بن المغيرة الرسول — صلى الله عليه وسلم- وهو يتلو بعض آيات من القرآن وكان من ألد أعدائه ، فتوجَّه إلى نفر من قريش قائلا:"والله لقد سمعت من محمد كلاما، ما هو من كلام الإنس ولا مـــن كلام الجنِّ وإن له لحلاوة وإن عليه لطـــلاوة " . وقد شعر بوضوح أن آيات القـــرآن تباين كلام الإنس من شعرائهم الفصحاء كما تُباين كلام الجن الذي كان

يزعم كُهانهم أنهم ينطقونهم به ، فهو ليس شعرًا موزونًا مما كان ينطق به شعراؤهم ، ولا سجعا مقفىً مما كان ينطق به كهانهم. إنه نمط جديد باهر يؤثر في النفوس والقلوب.

وقد عملت هذه الفصحى القرآنية على تقريب ما بينها وبين اللهجات القبلية إذ كان العرب يتلونه آناء الليل وأطراف النهار ، وتغلغلت هذه الفصحى باليَمَن في الإنحاء الداخلية التي كانت لا تزال تتكلم اللغة الحميرية . ولما فُتحت البلاد الإسلامية أخذت هذه الفصحى تسود شرقًا وغربًا إذ كانت تلاوةُ القرآن فرضًا مكتوبًا على كل مسلم، ويقول الله تعالى: (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكا ونحشُرُه يومَ القيامةِ أعمى قال ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتَها وكذلك اليوم تُنْسى) وبذلك تحول المسلمون في جميع أقطار البلاد الإسلامية إلى حفظه للقرآن يتلوه كبيرهم وصغيرهم ، حتى من سكنوا منهم في رءوس الجبال وفي الصحارى النائية مما جعل المسلمين في كل بقاع الأرض ينطبعون بطوابع الفصحى القرآنية.

وتتميز فصحى القرآن بأسلوبهم الرصين مع الجزالة والعذوبة وقربها من الأفهام حتى تلمس شغاف القلوب ، أسلوب واضح يلذ الآذان حين تستمع إليه والأفواه حين تنطق به والأفئدة حين تصغى له ، وقد استطاع أن يفتح قلوب الشعوب حين فتح العرب الأمصار من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلنطي فإذا جميعها تَهْجُر لغاتِها وتزايل ألسنتها ، وتحل فيها جميعًا لغته الصافية الشفافة بألفاظها الناصعة المستحسنة في الآذان وعلى الأفواه.

وهذا الأسلوب الرائع هو الذي أقام عمود العربية وحافظ على مقوماتها وأوضاعها في العالم العربي الكبير إلى اليوم، وكان المظنون حين حملت العربية في العصر العباسي علوم الأوائل السابقين لها جميعًا والفلسفة اليونانية أن تحدث تغيُّراتٌ وانحرافات في أوضاع العربية ، ولم تحدث، إذ وسعتها العربية باشتقاقاتها وصيغها الكثيرة، وتمثّلت كل ما نقل إليها

من الحضارات السابقة: : الهندية والفارسية واليونانية من علم وفكر وفلسفة ، وأضافت في جميع المجالات الفلسفية والعلمية إضافات باهرةً جعلتها تنفرد بقيادة العالم علميًا وفلسفيًا وحضاريًا وأخذت تذيع علومها وفلسفتها في أوربا وأقطار العالم لمدة ستة قرون من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي إلى القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ملأت فيها الأرض علمًا وأدبا وفلسفة ..

وحدثت خطوب وأحداث كثيرة ماتت لغات كانت ناطقة ومنتشرة مثل اللغتين اليونانية العتيقة واللاتينية ، وبَلِيَتْ منها فصحى العربية بلاء كثيرًا جعل حضارة الأمة العربية وما يُطْوَى فيها من العلوم والفلسفة تكاد تتوقف ويصيبها عُطلٌ شديد ، غيرَ أنها لم تمت وظل لواؤها مرفوعًا طوال عدة قرون جمدت فيها وركدت إلى أن وصلت إلى القرن التاسع عشر الميلادي بعد كل ما أصابها من الكوارث والخطوب سليمةً دون أن يعتريها شيء من الفساد أو الاختلال . وكانت مصر قد بدأت نهضة علمية ، فضمتها إلى صدرها وأخذت تنقل إليها العلوم الحديث للغرب ، وأدتها أداء دقيقًا وسرعان ما كوَّنت مصر منها لغة علمية في القرن الماضي انتفعت بها جاراتها العربية، وعرَّبت - مع العلوم الغَرْبيَّة - القانون الفرنسي وعلم الاقتصاد ويسميه العرب عِلْمَ المعاش . ولم تلبث مصر في العقود الأخيرة من القرن الماضي أن بدأت ترجمة الآداب الأوربية وما ينطوي فيها من الأعمال القصصية والمسرحية .

وكانت فصحى الشعر في هذه العقود قد تخلّصت - على يد البارودي - من أغلال البديع الثقيلة ومن أساليبه الركيكة الغثة وأصبح الشعر يصور حياة الشاعر ومشاعره وحياة أمته مع استعارته من أسلافه إطارهم الشعري، غير أنه يملؤه بروحه وبشخصيته وبأمته وأحداثها السياسية مما اختلف عليه من أيام نعيم وأيام بؤس ونفي في سرنديب.

ونمضي إلى القرن العشرين فيخلفه حافظ وشوقي البارودي ، أما حافظ فنشدَّ إلى قيثارة الفصحى وترا وطنيًا ثائرًا ملأ به قلوب الشعب المصري حماسة وصلابة

لمـــنازلة الإنجليز المحتلين لدياره ، وهو فيه يعد سابقًا لشعراء مصر والبلاد العربية ، وشدَّ مع هذا الوتر وترا عربيا وكان أو ما وقـــع فـــيه من نغم نداء قويا للمصريين والعـــرب لإغاثـــة الفصحى ضد أعدائها المســـتعمرين إذ هاجمهـــا قاض إنجليزي بمحكمة الاستئناف الأهلية يسمى ويلمور ألـــف كـــتابا عن لغة أهل القاهرة سنة ١٩٠٢ دعا فيه لاتخاذ العامية لغة للآداب والعـــلم في مصر ، وأحدث الكتاب هِزَّةً حادَّة في مصر والبلاد العربية . وردَّ عليه ردا عنـــيفا حماة الفصحى وفي مقدمتهم حـــافظ إبراهـــيم إذ نشـــر ضد دعوته قصـــيدته: "اللغة العربية تنعي حظها بين أهـــلها " مصوبا أبياتها - كالسهام - إلى دعوتـــه فقضت عليها قضاء مبرما وفيها يقول على لسان الفصحى :

وسعتُ كتاب الله لفظًا وغاية
وما ضقت عن آيٍ به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنســـيق أسمـــــاء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

وحافظ يرد في هذه الأبيات على ما كـــان يـــردده أعداء الفصحى من أنها لا تحمـــل مصـــطلحات العلـــوم الغربـــية ومخـــترعات الغرب، ويقول إن هذا ليس مـــن قصـــور ذاتي فيها إنما هو قصور في أهلها ، ويقول حافظ إنه يكفيها فخرًا أنها وســـعت كتاب الله وآياته المحكمة مشيرًا بذلـــك إلى أن دعـــوة ويلمور باستخدام العامـــية تحمل في طياتها دعوة إلى القطيعة بينـــنا وبين القرآن الذي يضمه المصريون إلى صـــدورهم وقلوبهم وهدمت القصيدة دعـــوة ويلمور من أساسها ، واضطر إلى مغادرة مصر في غير رجعة .

ويقف حافظ مع سورية ولبنان ضد الاســـتعمار ، مسلطا عليه نارا حامية من أشـــعاره ويستشـــعر بقوة ما بين مصر والبلاد العربية الشقيقة من أخوة ، وينتصر دائمًـــا للشيخ محمد عبده فيما كان يأخذ به نفسه من الإصلاح الديني ، ويشدُّ إلى قيـــثارة الفصـــحى وترا جديدا سبق به معاصـــريه من شعراء العربية غير منازع ، وأقصد وتر الشعر الاجتماعي الذي يصور فـــيه عِلَلـــنا الاجتماعية والأخلاقية ، مع

الدعوة إلى البر بالفقراء والبؤساء ، وحثّ الأثـــرياء عـــلى بـــذل أموالهم للملاجئ والجمعيات الخيرية.

وشدَّ شوقي إلى قيثارة الفصحى وترًا اجتماعيًّا بديعا كما شدَّ إليها وترا وطنيًّا رائعًا اشترك فيهما الوطني والاجتماعي مع حافظ، وله فيهما أبيات نادرة مثل قوله:

وطني لو شُغِلْتُ بالخلد عنه
نازعتني إليه في الخلد نفسي

فحتى لو كان ينعم في أعطاف الخلد وجنبات الجنان لن ينساه ولن يغرب عن خـــياله ، فمصر معبودته بتراثها العبق . وشـــد في قيثارة الفصحى وترا عربيًا في غايـــة الروعة ، وقصائده في دمشق قلما تجد دمشقيًا لا يحفظها ولا يتغنى بأبياتها ، من ذلك قصيدته القافية التي نظمها حين صوَّب الفرنسيون عليها مدافعهم ، وفيها يدعـــو السوريين إلى استمرار الثورة على الفرنســـيين وبذل دمائهم وأرواحهم في سبيل ما يريدون من الحرية والاستقلال ، يقول :

وللحرية الحمراء بابٌ
بكل يدٍ مضرَّجةٍ يُدَقُّ

وشد إلى قيثارة الفصحى وترا تاريخيًّا تغـــنى فيه بتاريخ مصر وأمجادها الفرعونية غـــناء حارا ، وله في هذا التاريخ قصائد فريدة مثل قصيدته في أبي الهول وقصيدته في اكتشـــاف قـــبر تـــوت عنخ آمون وقصيدته: النيل وفيها صور تاريخ الفراعنة وأمجادهم الحضارية العريقة ، وذكر تابوت موســـى وقصـــة يوسف وإخوته ومريم وعيســـى ونـــزول الإســـلام في مصـــر واستضـــاءتها بأنواره مجسما في ذلك كله شخصـــية النيل المعنوية بجانب شخصيته الحســـية . وشدَّ إلى قيثارة الفصحى وترًا دينيًّا بمدائح للرسول صلى الله عليه وسلم، يـــتفوق فيها على جميع معاصريه ، ومن أروعهـــا يتيمـــته الفـــريدة الـــتي سمَّاها الـــبردة والـــتي نظمها على غرار مَدْحه نـــبوية للبوصـــيري تحـــدث فـــيها عن ســـيرة الرســـول وشمائله العطرة ، وردَّ فـــيها على أعداء الإسلام الذين يزعمون أنـــه إنمـــا انتشر بالسيف وسفك الدماء قائلا:

قالوا غزوتَ ورُسْلُ الله ما بُعِثُوا
لقتل نَفْسٍ ولا جاءوا لسفك دَمِ

جَهْلٌ وتضليل أحلامٍ وسَفْسَطَةٌ
فَتَحْتَ بِالسَّيْفِ بَعْدَ الفَتْحِ بالقَلَمِ

ولـــو أن هؤلاء الأعداء قرءوا القرآن وما فيه من قوله تعالى :" وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين " لعرفوا أن حروب الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن عدوانية إنما كانـــت دفاعية . ولشوقي أبيات كثيرة نـــادرة في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم كقوله في افتتاح قصيدة في ذكرى المولد النبوي :

وُلد الهدى فالكائنات ضياءُ
وفَمُ الزَّمَانِ تبسُّمٌ وثناءُ

ويتحدث في فواتحها عن مولده وما حدث فيه من خوارق متعددة . وشوقي عـــبقري الشـــعر العربي الحديث ، وقد احتذى الشعراء في مصر والبلدان العربية نماذجـــه ونماذج حافظ في الشعر الوطني والاجتماعي ، وبذلك أظلت مدرستهما : مدرسة الإحياء في العالم العربي من الخليج إلى المحيط .

ونشـــأ جيل جديد يمثله عبد الرحمن شكري وإبراهيم المازني وعباس العقاد اتجه بفصحى الشعر وِجهَة لم تُعْرَف لها قديمًا إذ جعلوا قصائدها تعبر عن معانٍ إنسانية عامـــة وعن الطبيعة والكون وعن النفس ودخائلها ومطامحها وآلامها وأحلامها ، واســـتغرق هذا الجيل منـــزع الرومانسية في الغرب ، ولكل منهم دواوين متعددة . وخلفت هذا الجيل مدرسة أبولو ، ويتألق فـــيها إبراهيم ناجي وعلى محمود طه أما إبراهـــيم نـــاجي فغـــرق في المـــنـــزع الرومانسي الأوربي إلى أذنيه، فجعل شعره ذاتـــيًّا وجدانيًّا يتغنى فيه بحب شقي عاثر غـــناءِ كله ألم وشجن وقلق ممض وكأنه يتجزع الحياة من كوب ماء مرير ، وكان على محمود طه مثل ناجي يتأثر بالمنـــزع الرومانســـي الوجداني ، وعنى في شعره برصف الألفاظ الخلابة التي تؤثر في قارئه برنينها وألحانها المتلاحقة . وله ولصاحبه - مـــثل شـــعراء المدرســـتين السابقتين - تجديدات في الأوزان والقوافي .

ويشيع - منذ أواسط القرن العشرين- نمـــط جديد من الشعر يتخفف من أثقال العروض، فيلغي القافية المطردة إلغاء تامًّا، ويلغـــي معهـــا فكـــرة الشطر والبيت ،

فالقصيدة من هذا النمط الجديد لا تتكون من أبيات بل تتكون من سطور متلاحقة، ولا تستبقي من العروض الموروث للشعر العربي سوى التفعيلة إذ يعتمد عليها في سطوره ، ولذلك سموا هذا النمط شعر التفعيلة ، ومن شعرائه الممتازين نازك الملائكة بالعراق، وصلاح عبد الصبور بمصر ومنذ ظهر شعراؤه كثرة مفرطة في العالم العربي .

ومما يذكر لشوقي أنه أدخل في فصحى الشعر العربي فنًّا شعريًّا جديدًا هو فن الشعر التمثيلي الغربي ، وقد أراد به أن يقاوم تيار اللغة العامية الذي طغى على المسرح المصري ، ونجح في ذلك نجاحًا منقطع النظير ، وفتن الشباب بأعماله التمثيلية لإرضاء عواطفهم الوطنية والعربية، ولتمصيره هذا الفن الأوربي إذ جعله فنًّا مصريًّا عربيًّا لأول مرة في تاريخنا الحديث ، وقد ألف فيه ثلاث مسرحيات ترضي العواطف الوطنية وهي مصرع كليوباترا وقمبيز وعلى بك الكبير، ومسرحيتين ترضيان العواطف العربية الإسلامية ، وهما مجنون ليلى وعنترة ، وألحق بهما مسرحية نثرية هي أميرة الأندلس . وخلفه عزيز أباظة واتخذ منه إمامًا يتبع خطاه ، فينظم على قيثارة الفصحى مسرحية وطنية هي شجرة الدر ومسرحيات عربية ، هي قيس ولبنى والعباسة والناصر وغروب الأندلس سوى مسرحياته شهريار وقافلة النور وأوراق الخريف .

وعلى هذا النحو ازدهر الشعر العربي في القرن العشرين وازدهرت معه فصحاه إذ وقع الشعراء على قيثارتها مالا يكاد يحصى من الدواوين ذات الاتجاهات الجديدة لا في مصر وحدها بل في جميع أقطار العالم العربي ، سوى ما صاغ لها شوقي وعزيز أباظة من الشعر التمثيلي المسرحي .

وإذا انتقلنا من فصحى الشعر إلى فصحى النثر في القرن العشرين لاحظنا - منذ فواتحه - أن الكتّاب تخلصوا من أسلوب السجع وما كان يثقله من أغلال البديع ، وتحولوا إلى أسلوب مرسل خال من العوائق ، وأخذوا يُمَرِّنونه في موضوعات سياسية واجتماعية وفي أداء

مـــا يـــترجمونه من الموضوعات والمعاني الغربـــية ، وظهـــر حينئذ خطباءُ وكتابٌ كبارٌ مثل مصطفى كامل ومصطفى لطفي المـــنفلوطي وأحمـــد لطفـــي السيد ، أما مصـــطفى كـــامل فكـــان خطيب الأمة السياســـي ، الـــذي يـــنازل الاحتلال الإنجلـــيزي منازلة حادة ، ويعد مؤسس الخطابة السياسية في مصر والبلاد العربية ، ونماهـــا بعـــده ســـعد زغلول وخطباء الأحزاب السياسية ، واقترنت بها الخطابة القضائية ، إذ نقلنا نظام القضاء الغربي وما يتصل به من المحامين المدافعين عن المُدَّعين والمـــتهمين ، ونبغت في الخطابة القضائية طائفة كبيرة من المحامين . ونهضت مصر بهذين اللونين من الخطابة في الأدب العربي الحديث ، فهي التي أتيح لها من بين البلاد العربـــية أن تنشـــط فـــيهما ، إذ كانت الحـــريات مكبوتة في تلك البلاد بسبب خضـــوعها للترك أو لفرنسا ، ولم ينقل إلـــيها مبكرًا النظام القضائي الغربي كما نقل إلى مصر .

وأما مصطفى لطفي المنفلوطي فكان محررا في صحيفة المؤيد ، ولم يكن يكتب في السياســـة إنمـــا كان يكتب في بعض جوانب حياتنا الاجتماعية مقالات نشرها في تلك الصحيفة بعنوان " نظرات " تحول فـــيها إلى ما يشبه مصلحا اجتماعيا ، إذ يتحدث فيها عن عيوب المجتمع وما يتصل بها من مساوئ الأخلاق ، ويدعو إلى البر بالفقـــراء مصـــورا حياتهم وما فيها من هوان، كما يدعوا إلى التمسك بالفضائل. وهو يعني - في نظراته - بفصحى سلسلة عذبـــة يتـــيح لها جرسا حسن الوقع في النفوس ، وظل الشباب في عصره وبعده يعجبون به إعجابًا شديدًا .

وكـــان أحمـــد لطفـــي السيد محرر صـــحيفة الجريدة ، وكان في مقالاته بها يعـــنى بـــتلقين الشـــعب المصري حقوقه وواجباته السياسية وما ينبغي أن يسود فيه مـــن مبادئ الحرية : حرية الفرد وحرية الأمـــة وكان لا يزال يحاول تربية الشعب وتعـــريفه بما ينبغي له من النظم السياسية والاجتماعـــية الســـديدة ومن الاستقلال الـــذي يـــنـــزل من الأمة منـــزلة الخبز والمـــاء. وكل ذلك يؤدي بفصحى جزلة رصينة .

ونمضي بعد الحرب العالمية الأولى في هذا القرن فتنشأ عندنا الأحزاب ويؤسس كل حزب لنفسه صحيفة ينشر فيها آراءه في السياسة والحكم . وأخذت صحف الأحزاب وما عاصرها من مجلات أدبية كالهلال والمقتطف تنقل إلى القراء بحوثا في الأدب والفكر الغربيين ، وألحقت بصحف الأحزاب مجلات أدبية مثل السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعي ، ونشطت الكتابات الأدبية ، ويحمل لواءها العقاد والمازني في الكتابات النقدية وطه حسين ومحمد حسين هيكل في المثل العليا في الأدب ونقده ـ ولعباس العقاد وطه حسين حوار واسع في منزعهما للتجديد مع مصطفى صادق الرافعي الذي كان يحمل راية القديم ويدافع عنه دفاعًا حارا ، وكان سلامة موسى ثائرًا على القديم ثورة عنيفة ويدعو بقوة إلى نبذ كل ما يتصل به من علم وأدب ونظم سياسية ، ولا بأس عنده أن نجعل لغتنا أقرب إلى العامية .

وكان سلامة موسى يقف وحده ، فإن أدباء مصر المجددين من أمثال طه حسين وهيكل وعباس العقاد والمازني كانوا يجمعون على أن يظلوا ـ ويظل معهم الكتاب في مصر وغير مصر ـ مع الفصحى الرصينة الناصعة البديعة ، فهم يحرصون على الإعراب وعلى ألفاظ الفصحى السائغة التي تقررها المعاجم ، وهم في هذا الإطار يجددون تجديدًا لا يخرجون به عن أصول الفصحى ، وإنما يثريها وينميها بفكر جديد .

ومما لا ريب فيه أن هؤلاء المجددين العظام من أدبائنا أحدثوا في الفصحى العربية مرونة واسعة وقد أخذت جماعتهم تتكاثر وتتسع لعناصر من الشباب الذين حذقوا اللغات الأجنبية وفقهوا بدقة الآداب الغربية مثل توفيق الحكيم الروائي ومحمود تيمور القصصي بحيث أصبحنا بين الحربين العالميتين الأولى والثانية في هذا القرن نملك أدبا مصريًّا عربيًّا جديدًا نبت في وطن مصري على أيدي طائفة من المصريين .

وتتطور حياة المصريين العلمية والأدبية بعد الحرب العالمية الثانية تطورا واسعًا لسبب مهم ، وهو أن الجامعات

المصرية أنشأت أجيالا متخصصة في كل فـــرع من فروع العلم والأدب الغربيين ، ونـــتج عـــن ذلك أن أصبحت الفصحى لســـانا لكـــثير من ألوان الأدب والعلم ، ونشـــأت بينـــنا طبقة من العلماء تحسن التعـــبير العلمي والأدبي . واتسعت ترجمة الفكـــر الغربي ، وحقا كان قد سبق إلى ذلـــك كبار الأدباء السابقين مثل المأزني وطـــه حسين ومحمد حسين هيكل ، وقد تلاهـــم الشـــباب الذيـــن تخـــرجوا في الجامعـــات، وأقبلوا على ترجمة الفكر من جمـــيع اللغات الأوربية التي ثقفوها كما أقـــبلوا على بسط المذاهب الأدبية الغربية من كلاسيكية ورومانسية وواقعية ورمزية وســـريالية ، واشـــتركت معهم في هذه الجهـــود الخصـــبة أدباء البلاد العربية من الشباب وغير الشباب .

ونشـــأ عـــن ذلك أن أخذت حياة الأدب العربي المعاصر تتصل بحياة الآداب الغربـــية ، إذ أخذ الشباب في مصر وغير مصر يحاول إحداث نماذج من المسرحيات والقصص تطابق نماذج الغربيين في هذين الفنين على نحو ما هو معروف عن توفيق الحكيم ومحمود تيمور ويحيى حقي ونجيب محفوظ وغيرهم كثيرون ممن يجيدون الفن المســـرحي والفـــن القصصي . وأخذت مســـرحيات توفـــيق الحكيم تترجم إلى اللغـــات الأجنبـــية ، وتمـــثل على بعض مســـارح الغـــرب في فرنســـا والنمسا وإيطالـــيا. وتـــرجم إلى اللغات الأجنبية قصـــص كثيرة لمحمود تيمور.ويحيى حقي ونجيـــب محفـــوظ ولقصاصين آخرين في مصـــر والـــبلاد العربية ، وظفرت بعض قصص نجيب محفوظ بجائزة نوبل العالمية ، وهـــو اعتراف بأن أدبه عالمي إنساني وأن أدبنا العربي يرقى إلى مرتبة الآداب العالمية الحية الكبرى .

وحـــتى الآن لم أتكلم عن الصحافة وتأثيرهـــا الكبير في الفصحى وقد نشأت عندنا الصحافة في الثلث الأخير من القرن الماضي ، وأخذت تعنى بالشعب وتصوير ميوله وأهوائه السياسية، وكان ذلك تحولا كبيرًا بالفصحى ، إذ كان طال بها العهد في مخاطبة الحكام والأمراء والطبقة المثقفة في الأمة ، وكانت تخاطبهم بلغة مسجوعة تراكمـــت عليها أعشاب البديع ، وهي

الآن تخاطـــب الشعب ، فكان طبيعيًّا أن تـــنفي السجع وأعشاب البديع عن لغتها وتخاطـــبه بلغة سهلة واضحة يستطيع أن يفهمها توا.

وتصادف أن المطبعة أظهرت محرري الصحف على أعمال أدبية للأسلاف من أمـــثال ابن المقفع كتبت بأسلوب مرسل لـــيس فيه سجع ولا بديع ، فتحولوا إلى الكتابة بهذا الأسلوب ، حتى يفهم الشعب مـــا يـــريدون أن يقولوه ، وحتى لا يجد مشقة في هذا الفهم .

ويتولى الصحافة والصحف في القرن العشـــرين محررون نابهون كثيرون أخذوا يبســـطون أساليبهم الصحفية تبسيطًا لا ينـــزل بها إلى مستوى العامة والابتذال ، وفي نفس الوقت لا تعلو عليهم ولا ترتفع بحيث يشعرون بشيء من العسر في قراءتها وفهمها ، أساليب سهلة وواضحة حتى لا يعزفهمها على الطبقات الدنيا في الشعب إذ تـــريد الصـــحف أن تذيع وتنتشر في جماهيره . ومن أجل ذلك يحتاج الصحفي دائمًـــا إلى التبسيط في تفكيره وأسلوبه . وإذا كانت الفكرة التي يريد أن يبلغها إلى الجماهير الشعبية مرتفعة في نفسها حاول بكـــل ما يستطيع أن يبسطها إلى أقصى حـــد، حـــتى تكون واضحة للجماهير ، وحتى لا تجد أي مشقة في فهمها ، ولابد أن يخـــتار لها فصحى سهلة مبسطة غاية التبســـيط . ومع تعاقب العقود في القرن الحاضر بلغت الصحافة المصرية من تبسيط الفصحى أقصى حد ممكن .

والصـــحافة - بذلـــك - أنشأت لنا فصـــحى جديـــدة بـــين العربية الموروثة والعامـــية التي نتداولها في حياتنا اليومية ، ففيها فصاحة الأولى ، وفيها سهولة الثانية وقـــربها من الأفهام . وأتاحت الصحافة المصرية لهذه الفصحى المصرية الجديدة أن تنتشـــر لا في مصر وحدها بل في العالم العـــربي جمـــيعه، إذ تقبل عليها الجماهير القارئة في البلاد العربية في لبنان وسوريا والأردن والعـــراق والحجـــاز والسودان وبلـــدان المغـــرب ، وأصبحت الفصحى الصحفية المصرية هي الفصحى الشائعة في الـــبلاد العربية . وتكثر الصحف في مصر والعالم العربي منذ منتصف القرن الحاضر، حتى ليصدر منها يوميا مئات وتكثر معها

المجلات الأدبية ويبلغ قراء بعض الصحف في مصر مليونا وأكثر ، وأعجب أن يقول بعض الكتاب إننا في حاجة إلى لغة وسطى بين اللغة الموروثة والعامية ، والصحافة قد أوجدت له هذه اللغة وهو والجماهير يحملونها ويقرءونها صباح مساء، ولو جمعت في أي بلد عربي لتكونت منها تلال .

ولم تتفرع من الفصحى في القرن العشرين فصحى الصحافة وحدها ، وقد تفرعت منها فصحى أدبية متنوعة تنوعا واسعا بتنوع الفنون التي استحدثتها مصر في القرن الحاضر ، وفي مقدمتها فن المقالة وقد أُفْرِدَت لها مجلات أسبوعية مثل السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعي والرسالة والثقافة ومجلات شهرية مثل الهلال وكانت تعنى المقتطف بعرض الحركة العلمية عند الغربيين وتصوير نظرياتها المختلفة بخلاف المجلات التي سبقتها فقد عنيت بالأدب ومباحث الغربيين العميقة في الفكر والأخلاق والفلسفة والاجتماع والاقتصاد . ومنذ أواسط القرن تتكاثر المقالات في الصحف وتتكاثر المجلات ، ويصبح لكل كلية علمية مجلة .

ولم يكن للفصحى في الماضي سوى المقامات التي تصور مغامرات أديب متسول يخلب سامعيه ببلاغة عباراته ، وكنا قد أخذنا نتأثر بالأدب الغربي ولم يلبث هيكل في العقد الثاني من القرن الحاضر أن كتب قصة اجتماعية طويلة مستضيئًا فيها بالقصص الغربي وتقاليده ، ويكثر بعد الحرب الأولى في هذا القرن الشباب الذين يكتبون الأقصوصة كتابة فنية . ويُكثر محمود تيمور من الأقاصيص والقصص الاجتماعية الطويلة ، ويبلغ الذروة في فن القصة ، ويشاركه في القصة الطويلة طه حسين واصفًا الحياة المصرية المازني متجها في قصصه إلى التحليل النفسي ، ويتكاثر معهم القصاص من الشباب ، ونمضي بعد ثورتنا المصرية فيحدث انفجار في كتابة القصة عندنا سواء من حيث كثرة القصاص أو من حيث كثرة ما ينتجون من القصص بالفصحى ، مما يُصَوِّرُ نشاطا هائلا بفن القصة في القرن العشرين ، ونال الأستاذ

نجيب محفوظ في هذا الفن - كما أسلفنا - جائزة نوبل الأدبية .

ولم تعرف الفصحى فن المسرحية قبل القـــرن العشـــرين ، وما تتقدم إلى العقد الـــثاني مـــن هذا القرن حتى يلمع اسم كاتـــبين مســـرحيين همـــا فرح أنطون وإبراهـــيم رمزي دَرَسَا أصول هذا الفن الغـــربي وألَّفَـــا فـــيه مسرحيات تاريخية واجتماعية،وتضع الحرب العالمية أوزارها، وينشـــط التمثـــيل المسرحي وتؤلّف له مســـرحيات اجتماعـــية مختلفة ، وتنشئ الدولة في سنة ١٩٣٤ الفرقة القومية كما تنشئ المعهد العالي للتمثيل ، ويظهر توفيق الحكـــيم ، ويثب بالتأليف المسرحي وثبة كـــبرى ، ويُرْسِـــي قواعده في النثر كما أرســـاها شوقي في الشعر ، ويتابع نشر مسرحياته البديعة . وكما حدث بعد الـــثورة انفجـــار في فن القصة ، وتكاثر مؤلفوهـــا في مصـــر وغير مصر حدث انفجـــار مقـــابل في فن المسرحية وتكاثر مؤلفوها وتكاثرت المسرحيات .

وواضـــح مـــن كل ما أسلفت أن الفصـــحى ازدهـــرت في القرن العشرين ازدهارًا عظيمًا ، فقد تفرع منها فصحى صـــحفية مبســـطة يحمـــلها الملايين من الجماهير المصرية والعربية يوميًا ، وبث في فصـــحى النثر كبار الأدباء نضرة ورونقا رائعين . وليس ذلك ما حققته فحسب ، فإنهـــا أدت أداء بديعًا ما استحدثناه من فـــنون المقالة والقصة والمسرحية وبذلك عاشت - طوال القرن العشرين - في النثر والشـــعر جمـــيعًا حياة مزدهرة أعظم ما يكون الازدهار وأروعه .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شوقي ضيف

رئيس المجمع